أثر الكنيسة فى أدب جبران

إعـــداد

د.عبد الهادى أحمد أبو القاسم

DOI : 10.12816/0055872

مجلة الدراسات التربوية والانسانية . كلية التربية . جامعة دمنهور
المجلد العاشر – العدد الرابع – الجزء الثالث – لسنة ٢٠١٨

DOI : 10.12816/0055872

أثر الكنيسة فى أدب جبران

د.عبد الهادى أحمد أبو القاسم

DOI : 10.12816/0055872

إذا ذكر جبران خليل جبران فأول ما يتبادر إلى الأذهان تلك المجموعة الأدبية التى شدت الرحال إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث صاحبها أدبها شعراً ونثراً، وقد قدر الله لهذا الأدب أن ينمو فى تلك البقاع التى وجدت فيها هذه المجموعة مستقّراً ومقاماً .. على الرغم من حياة الغربة والبعد عن الأوطان الأصلية التى كثيراً ما يحن إليها هؤلاء الأدباء الذين طالت غربتهم وإقامتهم بعيداً عن أوطانهم، حتى اشتهروا بشعراء المهجر سواء فى أمريكا الشمالية أو أمريكا الجنوبية.

وكان من أبرز هؤلاء الشعراء والأدباء، جبران خليل جبران، ميخائيل نعيمة، وليم كاتسفليس، ندرة حداد، إيليا أبو ماضى، وديع باحوط، رشيد أيوب، إلياس عطا الله، عبد المسيح حداد، نسبيب عريضة وأحمد زكى أبو شادى ...

ومن هؤلاء تأسست [الرابطة القلمية]، وكان ذلك فى ٢٨ نيسان عام ١٩٢٠م، أى فى بداية القرن العشرين.

وكان أغلب هؤلاء المهاجرين من سوريا ولبنان، وهم من الشعراء والأدباء والكتَّاب، أو ممن تفتحت مواهبهم فى المهجر بحكم الغربة التى أشرنا إليها آنفاً. وسواء كانت هجرتهم إلى الشمال أو الجنوب، فإن الأديب من ديدنه وطبعه أنه لا يتخلى عن أدبه وفنه أينما كان.

وهكذا نجد أن ثمة أدباً نما فى بيئة غير عربية ومصدره عربى، وإن كان هذا الأدب نشأ بعيداً عن الساحة العربية. ومن ثم غلبت عليه التسمية بـ "الأدب المهجرى". وهذا ما أشار إليه الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى حين قال: «وهذا الأدب العربى الذى كتب فى المهجر هو الذى سُمّى [الأدب المهجرى] والذى صار مدرسة ضخمة من مدارس الأدب العربى المعاصرة»[i].

وهنا أجد سؤالاً يدور بخلدى وهو: ما الدافع الذى دعا هؤلاء الأدباء إلى الهجرة؟

إن من يدرس تاريخ الأدب العربى ويمعن النظر فى سيرة هذه الطائفة من الأدباء يقف على عدة أسباب دعتهم إلى الهجرة من بلدانهم. وليس من همى هنا أن أسرد هذه الأسباب برمتها، بل يكفينا منها البلاد العربية فى تلك الحقبة، وما يلازمها من مرض وتأخر، فأصبحت الحياة جحيماً لا يطاق، ومن ثم أصبح التفكير فى البحث عن ملجأ آخر طلباً للرزق والحياة.

يضاف إلى ذلك الصمت الذى خيم على هؤلاء فحبس ألسنتهم عن التعبير عن حريتهم والبوح بما فى نفوسهم وما تنطوى عليه من كبت وقهر.

ولما رأى الأدباء ما عليه حال أمتهم فضلوا الرحيل عن الوطن. وما أن استقروا فى العالم الجديد وتنعموا بالحرية، حتى بدأوا يتغنون بها ويعّبرون عن أفكارهم دون خوف أو رعب. فهذا الشاعر الغزوى (رشيد سليم الخورى) يخاطب الحرية قائلاً:

يا يراعى كان الكلام حراما   فاكتب الآن فالسكوت حرام

كذلك محنة التخلف الذى منيت به الأمة العربية فى تلك الفترة. هذا الواقع الأليم الذى فُرض على لبنان، شأنها فى ذلك شأن الأقطار القريبة الأخرى التى نالت نصيبها من المذلة والقهر. ناهيك عن الصعوبات التى عاناها المهاجرون فى هذه المرحلة، فها هو الشاعر محمود سماحة يصور لنا هذه المعاناة فى قوله:

كم طويتُ القفار مشياً، وحملى   فوق ظهرى، يكاد يقصم ظهرى
كم قرعت الأبواب، غير مبالٍ   بكلال، وقّر فصل وحَرِّ
كم توسدت صخرةً، وذراعى   تحت رأسى، وخنجرى فوق صدرى[ii]

صورة رجال الكنيسة :

أود أن أنوه منذ البداية أن اختيارى لموضوع الكنيسة فى أدب جبران سينصب على ما كتبه جبران فى تلك المؤلفات ولذا فسأركز على مؤلفات جبران النثرية؛ إذ أننا نكاد لا نجد جبران يذكر لفظة (الكنيسة) فى شعره أو ما يتعلق بها مثل: (الصليب– الراهب– القس – مذبح – دير – صومعة – المسيح– ثالوث). كذلك

DOI : 10.12816/0055872

لم يجد الباحث أيضاً: (لوقا – يوحنا – هيكل)، وإن كانت الأخيرة وردت مرة واحدة ولكن ليست بمعنى هيكل النصارى / الكنيسة.

لقد رأى جبران فى لبنان –وهو فتى يافع– رجال الكنيسة وهم يظلمون الفقراء ويستبدون بهم، وكانت أمه قد غذّت روحه حب شخص المسيح، فنقم بذلك على التناقض بين رجال الدين وتعاليم المسيح.

وتؤكد نادرة جميل سراج ذلك فتقول: «وثار على سلطة رجال الدين يوم وجدهم يستبيحون أموال الناس وممتلكاتهم وأرزاقهم باسم الطقوس الدينية، وكتب فى هذا الموضوع عدداً من مقالاته وقصصه»(iii).

ونجد جبران يتحدث عن نقمته على المجتمع فيقول: «ويطلب الشرقيون من العالم أن يبحث فى تاريخ آبائهم وجدودهم، متعمقاً بدرس آثارهم وتقاليدهم ... فالشرقيون يعيشون فى مسارح الماضى الغابر ويميلون إلى الأمور السلبية ويكرهون المبادئ والتعاليم الإيجابية المجردة التى تلسعهم وتبعثهم من رقادهم العميق المغمور بالأحلام الهادئة»(iv).

ولم يقف الأمر برجال الكنيسة عند هذا الحد، بل نجدهم يزيفون بعض تعاليم الدين حيث يبيعون صلواتهم وتعازيمهم بالذهب والفضة، وذلك على حد قول جبران فى هذا الجانب: «قد سمعتم بأن يسوع الناصرى قد قال لتلاميذه: مجّاناً أخذتم مجاناً أعطوا. لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً فى مناطقكم. إذاً أى تعاليم أباحت للرهبان والكهّان بيع صلواتهم وتعازيمهم بالفضة والذهب؟ أنتم تصلّون فى سكينة الليالى قائلين: أعطنا يا رب خبزنا كفاف يومنا. والرب قد وهبكم هذه الأرض لتعطيكم الخبز الكافى، فهل وهب رؤساء الأديرة السلطة لانتزاع هذا الخبز من بين أيديكم؟»(v).

وجبران إذ يفضح رجال الكنيسة الذين يحرفون تعاليم الدين، فالخير مكفول لجميع فئات المجتمع أيّاً كان نوع هذه الفئات. من حقها كسب عيشها بالطريقة والكيفية التى كفلها لها الرب دون تزييف للواقع الذى تعارفت عليه البشرية.

أما عن موقف رجال الكنيسة من المرأة فقد كان شرّاً مستطيراً .. حيث كانت الكنيسة تنظر إلى المرأة نظرة فيها شىء من الإجحاف وامتهان الحقوق. «... لا أعود إلى هذا المنزل وبى رمق من الحياة، قد خرجت منه إلى الأبد . قد تركته ... مثلما يترك الأسير أرض المنفى. فلا تبعدنى عنك ولا تقل إنى خائنة؛ لأن يد الحب التى مزجت روحى بروحك هى أقوى من يد الكاهن التى اسلمت جسدى إلى مشيئة العريس»(vi).

هكذا شأن المرأة ظلت تعانى من القهر والتعاسة ونقمة رجال الكنيسة، فقد كانت سلعة تباع وتشترى؛ فالغنى يشترى الفتاة بماله دون مراعاة لمدى حبها لهذا الرجل الغنى، ولذلك يصفه جبران بالتعاسة. ليس هو فحسب بل المراة التى تجبر على الزواج منه فهى تعسة أيضاً فى نظر جبران حيث يقول: «وما أتعس المرأة التى تستيقظ من غفلة الشبيبة فتجد ذاتها فى منزل رجل يغمرها بأمواله وعطاياه، لكنه لا يقدر أن يلامس قلبها بشعلة الحب المحببة»(vii).

أما الرجل الذى يقبل الزواج بهذه الكيفية فهو عند جبران رجل غبى: «استخدم الحيلة والمال والخباثة ليصيّر له زوجة، فهو رمز هذه الأمة التعسة التى تبحث عن النور فى الظلمة، وتترقب خروج الماء من الصخرة. أنت رمز هذه البلاد المستسلمة لغباوتها استسلام الأعمى لقائده الأعمى»(viii).

ومهما كان الأمر فإن الفكرة الجبرانية تجعل جبران لا يؤاخذ أمثال هؤلاء، فيقول: «أنا أغتفر لك صغارتك؛ لأن النفس الفارحة بذهابها من هذا العالم تغتفر جميع زلاّت هذا العالم»(ix).

إن أدب جبران من قصة ومقالة أو رواية يقدم صورة لرجال الكنيسة يكشف فيها ظلم هؤلاء وتجنيهم على المجتمع وفرض سيطرتهم عليه، ويبدو المجتمع من خلال تلك الصورة ضعيفاً ، لا حول له ولا قوة.

المجتمع فى ظل الكنيسة :

DOI : 10.12816/0055872

رأى جبران المجتمع فى بلاد الشام –ولاسيما لبنان– يخضع للكنيسة، كما رأى الناس يطأطئون الرؤوس أمام رجال الكنيسة، فساءه ذلك وعّبر عنه فى قوله: «ولكن أى مسيحى يقدر أن يقاوم أسقفاً فى سوريا ويبقى محسوباً بين المؤمنين؟ أى رجل يخرج عن طاعة رئيس دينه فى الشرق ويظل كريماً بين الناس؟ أتعاند العين سهماً ولا تفقأ؟ أو تناضل اليد سيفاً ولا تقطع؟»(x).

وقد ساء جبران أن يرى المجتمع يخضع ولا يثور فقال: «إن الجامعة البشرية قد استسلمت سبعين قرناً إلى الشرائع الفاسدة، فلم تعد قادرة على إدراك معانى النواميس العلوية الأولية الخالدة، وقد تعودت بصيرة الإنسان النظر إلى ضوء الشموع الضئيلة فلم تعد تستطيع أن تحدق إلى نور الشمس»(xi).

كما يرى جبران أن الذى يزج به فى السجن دون وجه حق وبمقدوره الخلاص من هذا السجن فعليه أن يخلص لنفسه، وإلا يعد خواراً ضعيفاً. إذ يقول: «إن السجين المظلوم الذى يستطيع أن يهدم جدران سجنه ولا يفعل يكون جباناً »(xii).

ثم نجده يتساءل عن الشريعة البشرية التى تحقق الفائدة لأبناء المجتمع المظلومين ما داموا لم يحطموا نيرهم على أبواب السجون التى تقيدهم وتكبلهم بالحديد، فإذا ما فكوا هذه الأغلال فليس فى مقدور أحد أن يجرهم إلى المحاكمة إذا مزقوا ملابسهم وألقوا بها فى مكان بعيد عن المارة حتى لا يعرقلوا طريق أحد من الناس(xiii).

ويصور لنا جبران المجتمع فى ظل الكنيسة عند حديثه عن موقف رجال الكنيسة من قصة "صراخ القبور" التى تمثل سارق الحبوب واتهامه بسرقة الغلال، كما جاء على لسان زوجته التى ذكرت بأن زوجها لم يكن لصّاً «بل كان زراعاً يفلح أرض الدير ويستغلها ولا يحصل من الرهبان إلا على رغيف نتقاسمه عند المساء ولا تبقى منه لقمة إلى الصباح ...»(xiv).

يتضح لنا أن هذا الرجل قضى عمرهفى خدمة حقول الدير سقياً وزعاً وإشرافاً على بساتينه، ولما طعن فى السن وخارت قواه ولاحقه المرض تم إبعاده عن

الدير بحجة أنه ليس فى حاجة إلى خدماته، وطلبوا منه أن يبعث أبناءه بعد أن يشبوا عن الطوق ليتولوا عمل أبيهم بدلاً منه. فانهمر بالبكاء، «واسترحمهم باسم يسوع واستحلفهم بالملائكة والقديسين فلم يرحموه ولم يشفقوا عليه»(xv). وبكت معه زوجته ولكنه لم ييأس فتوجه تلقاء المدينة باحثاً عن عمل يؤمّن به حياة أسرته، ولكنه لم يوفق؛ لأن أصحاب الترف والنعيم لا يستخدمون إلا الفتيان الأقوياء القادرين على العمل، واختار أن يجلس على قارعة الطريق يسأل الناس أعطوه أم منعوه، ولكن لم يشفق عليه أحد بل كانوا يكتفون بقوله: «الصدقة لا تجور على مغلوب التوانى والكسل»(xvi).

وذات ليلة بلغ الجوع غايته من الأطفال حتى كاد رضيعهم أن يمص ثدى أمه دون أن يجد لبناً ... هنا استغل الزوج فرصة الليل الذى يستره وتسلل خلسة قاصداً أحد أقبية الدير حيث يخزن الرهبان غلة الحقول وخمر الكروم، وحمل زمبيلاً من الدقيق على ظهره وحاول الرجوع، لكنه لم ينج من القس الذين استيقظوا وقبضوا عليه وشتموه وضربوه، وعندما أصبح الصبح .. أسلموه إلى الجند قائلين: «هو لص شرير جاء لكى يسرق آنية الدير الذهبية. فاقتاده الجند إلى السجن ثم إلى المشنقة»(xvii). ولعل مرد ذلك راجع إلى أنه حاول أن يختلس من فضلات الغلة التى طالما جناها بأتعابه فترة عمله بالدير. وقد تأثرت زوجته بهذه المعاملة لزوجها والتى أدت إلى القبض عليه تم الفتك به. وما كان من هذه الأملة إلا أن وضعت صليباً على قبره ليكون دليلاً قاطعاً على ظلم الرهبان وبطشهم بالضعفاء(xviii).

ومثل هذا التصرف من رجال الكنيسة تجاه المجتمع جعل جبران يحكم على الشريعة بأنها خداع واغتصاب وإرهاب فالمجتمع ليس طاغية، بل يدعو دائماً إلى التقدم والحرية ومن ثم فلا يوجد سيد ومسود فى ظل الشريعة النزيهة التى تحقق الخير للبشرية مهما كانت الدوافع والأسباب(xix).

المرأة عند جبران:

DOI : 10.12816/0055872

لعل ما تعرضت له المرأة من ظلم واستعباد وما لاقته من إهانة وسلب إرادة وكبت حرية من رجال الدين المتمثل فى الكنيسة هو الذى أثر فى فكر جبران وجعله يقف فى وجه هؤلاء الطغاة بالمرصاد؛ لينصف المرأة ويرد لها شيئاً من كرامتها وحريتها. وهذا ما أشار إليه جبران فى كتاباته التى بين أيدينا وكيف صورها كّماً مهملاً لا يعتد برأيها من قريب أو بعيد.

ولكن هل كانت المرأة تقف من القيود التى فرضتها عليها الكنيسة موقف المتفرج؟ أم لابد من مخرج يحررها من هذه القيود؟! حتى لا تعيش فى تبعية وولاء.

نجد جبران يصرح برأيه فى المرأة وهو بهذا يدعو إلى الحرية ليقف من المرأة موقف تقدير واحترام، حيث يضعها فى المكانة التى تسترعى انتباه الفنانين والأدباء أكثر من غيرهم من عامة الناس.

وأول ما يصادفنا عند جبران فى رأيه حول المرأة، هو رفضه للزواج ونقمته عليه، وإن كان هذا الرفض يكتنفه شيء من الغموض. يقول الأستاذ خليفة محمد التليسى: «ورأى جبران فى الزواج غير واضح، فهو كافر به عازف عنه ... ولكننا نستطيع أن نفهم من آثاره الأدبية أنه كان يحتد على الطريقة التى كان يتم بها الزواج فى الشرق تلك الطريقة التى تجعل المرأة بضاعة رخيصة لا وزن لها ولا قيمة لعواطفها»[xx].

ويقول الأستاذ حنا الفاخورى: «قد انتصر جبران انتصاراً شديداً للمرأة أياً كانت .. وتنكر للزواج الذى لا يقوم على محبة حقيقية وللتقاليد العمياء التى تجعل من المرأة ألعوبة فى يد القضاء، وهو يعلق حقوق المرأة وبطلان كل رابطة بينها وبين الرجل بمعزل عن الروح والعواطف»[xxi].

ويتحدث إنعام الجندى عن دعوة جبران إلى تحرير المرأة فيقول: «... إذ يعتبر زواجها من غير رضاها باطلاً ولو باركه رجال الدين... وزواجها برضاها شرعّياً ولو لم يباركه رجال الدين ... لا يعنى ذلك أن يترك الأمر فوضى، بل أن ينظم الزواج على أساس المحبة والإرادة الحرة، بذا تأمر الأديان جميعاً »[xxii].

وهذه الآراء التى يجمع عليها هؤلاء الأدباء هى فى جملتها تؤكد فلسفة جبران للحب وهى إرادة مطلقة يجب أن يتحلى بها كل من له الرغبة فى الإقدام على الزواج، وهو يتحامل على طائفة من الناس ويصف بعضهم بالجهل خاصة «الذين يتوهمون أن المحبة تتولد بالمعاشرة الطويلة والموافقة المستمرة. إن المحبة الحقيقية هى ابنة التفاهم الروحى وإن لم يتم هذا التفاهم بلحظة واحدة لا يتم بعامٍ ولا بجيل كامل»(xxiii).

وهذا ما يفسره الحوار الذى جرى بين جبران وسلمى ابنة فارس كرامة التى التفتت إليه ووجهها يتلألأ كأنه نور القمر فبدت له كتمثال من العاج نحتته أصابع متعبِّد، وهى تخاطبه قائلة: «لماذا لا تتكلم؟ لماذا لا تحدثنى عن ماضى حياتك». وفى نظرة جبران للحب نجده يترجمه فى قصصه حسب ما يمليه عليه خياله هذه النظرة التى تتجلى فى أن الفتاة عليها أن تتزوج من تحب دون مراعاتها لأى أطماع أخرى، ويحق للزوجة أن تخون زوجها، إذا ما استهواها شاب كجبران ... وهكذا فالحب له ضوابطه كما للزوج قيوده.. ثم يستطرد الحديث بأن جبران ليس من همه أن يفرض على الناس آراءه وأهواءه بل من واجبه أن ينقل وجهة نظره للآخرين وإن كانت غير ملزمة(xxiv).

وفى هذا نرى أن جبران يرجع كل شىء إلى الحب الذى ينبغى أن يقوم عليه أساس بناء المجتمعات، وهو بهذا لا يعنى حب الرجل للمرأة فقط، بل الحب المطلق الذى يربط الإنسانية جمعاء؛ فالناس إخوة متحابون منذ أن خلق الله العالم، مهما اختلفت أوضاعهم الاجتماعية والمادية فى هذه الحياة.

«إن الأمة المستعبدة بروحها وعقليتها لا تستطيع أن تكون حرة بملابسها وعاداتها ... والحياة بغير الحرية كجسم بغير روح»(xxv).

نستنتج من هذا أن الحب والحرية هما من أبرز العناصر التى بنى عليها جبران فلسفته أو مذهبه فى الحياة(xxvi).

DOI : 10.12816/0055872

وحب جبران للمرأة لم يقف عند هذا الحد، بل تعداه إلى أبعد من ذلك حيث نفذ إلى الأعماق فعبد أمومتها وإن كان تعزله بها جاء «بعيداً عن التدنى إلى الأغراض الجسدية»(xxvii).

ولما كان جبران بوصفه مسيحياً إذن لا غرابة «أن تقديسه للمرأة وسموه بها يحملان على أعطافه روحاً مسيحية. وكثيراً ما يختلط حب المرأة فى عاطفة المسيحى بعبادة العذراء»(xxviii).

تحالف الإقطاع مع رجال الدين:

رأى جبران فى لبنان تحالف رجال الكنيسة مع الإقطاع واعتماد هؤلاء مع أولئك فى إذلال الفلاحين وقهرهم باسم الدين. هذا التحالف هو الذى جعل جبران يهاجم الإقطاعية، كما يقول الأستاذ حنا الفاخورى: «ولهذا هاجم فى قصته [خليل الكافر] الإقطاعية القائمة على جهل الناس وفقرهم»(xxix).

وملخص هذه القصة أن فتًى فى الثانية والعشرين من عمره كان يسير على الطريق المتصاعدة بتدرج من دير قزحّيا(*) إلى قرية الشيخ عباس فى ليلة شاتية استمد زمهريرها، وظل هذا الشاب يرتجف من شدة البرد والرياح تكاد تعصف به حتى ألقت به على سفح من الثلوج.

وعلى الرغم مما كان فى الدير من كنوز الذهب والفضة والغلة والخمور وغيرها. إلا أن هذا الشاب آثر الخروج من الدير كرهاً تاركاً كل وسائل الإغراء التى يحتوى عليها الدير. معتقداً فى قرارة نفسه أن الإنسان لا يسلم نفسه إلى مرؤوسيه ولا يستجيب لطلبهم؛ لأنه ليس كالآلة الخرساء التى تفقد الإحساس والقوة، فالرجل «لا يصير راهباً فى عرف رئيسه»(xxx).

ويصور جبران فترة الحصاد وخروج الفلاحين إلى الحقول وجمعهم للمحصولات الزراعية حتى كاد كل فلاح يستغل الحقل الذى فلحه وزرعه من قبل وبهذا امتلأت تلك الأكواخ بالغلة من القمح والذرة والخمر والزيت(xxxi). ومنذ ذلك الحين

أصبح كل فلاح يستغل الحقل بما حققه من أتعاب وكفاح حتى صارت الأرض ملكاً له بما فيها من ثمار وخيرات.

ويتطرق جبران فى قصته المذكورة إلى الشيخ عباس وهو إقطاعى مسلم حيث يعلن جبران مهاجمته له فيقول: «ولم يكن استسلام أولئك المساكين إلى الشيخ عباس وخوفهم من قساوته ناتجين عن ضعفهم وقوّته فقط، بل كانا ناتجين عن فقرهم واحتياجهم إليه ... فقد كان أكثرهم يحتاج إلى الخبز فيذهب إليه الواحد بعد الآخر ويتضرع أمامه باكياً مستعطفاً لكى يقرضه ديناراً أو مكيالاً من الحنطة»(xxxii).

إذن هذه التعاسة جاءت نتيجة الفقر ووليدة الحاجة مما جعلهم يعيشون فى رهبة وخوف، الأمر الذى جعلهم يهرعون إليه لسد حاجاتهم وتحقيق رغباتهم.

ثم يتساءل جبران متخذاً عن بيع تعاليم الدين فيقول: «لماذا يأكل الشيخ عباس خبزه مجبولاً بعرق جبينكم ويشرب خمره ممزوجة بدموعكم؟. هل خيّر الله هذا الرجل وجعله سيداً إذ كان فى رحم أمه؟ أم غضب عليكم ... وبعثكم عبيداً إلى هذه الحياة؟ لكى تجمعوا غلة الحقول ولا تأكلوا غير أشواك الأودية؟»(xxxiii).

إن تحالف الإقطاع مع رجال الدين هو الدافع الرئيس الذى حرك ضمير جبران وألهب وجدانه ليقف هذا الموقف الفنى الذى عبر عنه فى قصة، قد تكون ضعيفة من الناحية الفنية، ولكن موقفه يظل –فى الأحوال كلها– دالاً على روحه الناقمة، كما يظل دالاً على واقع لبنان.

وهذا ما يوضح موقف جبران أيضاً من العالم الذى تهيمن عليه إقطاعيتان سياسية ودينية بما تحمله من جور وظلم وبغى من قبل الحكام والمتسلطين دينياً ودنيوياً والذى ترك أثراً سيئاً أدى إلى نتيجة سلبية ومزق العلاقة القائمة بين هؤلاء المستبدين وبين بقية الشعوب(xxxiv).

وفى هذا الصدد يقول ميخائيل نعيمة: «ولعل أحب الناس إلى قلب جبران الإنسان الفطرى والطبيعى، أكان راعى أبقار أم حرّاثاً أم عاملاً لا سلاح فى يده

DOI : 10.12816/0055872

غير المعول. ولعل أبغضهم إليه أولئك الذين يظلمون أبناء الفطرة والطبيعة، فيمتهنون كرامة الإنسان فيهم ويقدمون إليهم السم فى الدسم»(xxxv).

وخلاصة القول فإن هذه القصة تدل على أن سخط جبران لم يقتصر على رجال الدين المزعومين فى الكنيسة، وإنما كان يحارب كل من استتر بالدين ولم يعمل بحقيقته الخالصة سواء من القساوسة والرهبان أو من شيوخ المسلمين ومنهم (الشيخ عباس) الذى اتهمه الفقراء تحت ستار ورداء وعباءة الدين.

وهذا التحليل الذى قدمناه لهذه القصة هو خير دليل على ما اتصف به رجال الدين المزيفين ومن ساندهم وانضم إليهم وتبنى فكرتهم ووقف إلى جانبهم.

نقمة جبران على رجال الدين:

تتضح هذه النقمة من فضح رجال الدين وتحريض المستضعفين عليهم وتوبيخهم لخضوعهم. والأمثلة على ذلك كثيرة نجتزئ منها ما يأتى:

١- هاجم جبران الكنيسة وفضح الكهان ورجال الدين ولاسيما (المطران). الذى نجده يصور فضحه فى قوله: «كان المطران يبلغ أمانيه مستتراً بأثوابه البنفسجية ويشبع مطامعه محتمياً بالصليب الذهبى المعلق على صدره...كان المطران يذهب إلى الكنيسة فى الصباح ويصرف ما بقى من النهار منتزعاً الآمال من الأرامل واليتامى وبسطاء القلب. كان المطران يقف يوم الأحد أمام المذبح ويعظ المؤمنين بما لا يتعظ به، ويصرف أيام الأسبوع مستغلاً بسياسة البلاد»(xxxvi).

ولم يخف على جبران ما كان يقوم به رجال الدين من ادخار للأموال داخل الكنائس ويحرمون منها عامة الشعب يعانون من العُرى والجوع. يقول عنهم مخاطباً المسيح: «لقد أقاموا يا يسوع لمجد أسمائهم كنائس ومعابد كسوها بالحرير المنسوج والذهب المذوب وتركوا أجساد مختاريك الفقراء عارية فى الأزمنة الباردة، وملئوا الفضاء بدخان البخور ولهيب الشموع، وتركوا بطون المؤمنين بألوهيتك خالية من الخبز»(xxxvii).

٢- سلط جبران هجومه المباشر على رجال الكنيسة، وقد جاء هذا الهجوم عنيفاً وفى صورة علنية ودون تحفظ، حيث لاحظ ما لا ينبغى السكوت عليه إذ يقول: «هل وهبنا الله نسمة الحياة لنضعها تحت أقدام الموت؟ وأعطانا الحرية لنجعلها ظلاً للاستعباد؟ إن من يخمد نار نفسه بيده يكون كافراً بالسماء التى أوقدتها»[xxxviii]. وربما يقصد بالنار هنا إشعال الثورة على رجال الدين مقابل ظلمهم واستعبادهم.

وهاجم جبران رجال الدين فى فلورنسا قائلاً عنهم: «هم ينادون بحياة الطهر والورع مع احتفاظهم بالعاهرات من النساء ويحرضون غيرهم على الصوم، وهم يتناولون أشهى الأطعمة ... هم حطموا الكنيسة الصحيحة وشيدوا بدلها كنيسة باطلة ملوثة وأخضعوا الكنيسة للمنجمين، واحتفظوا بالمظاهر والطقوس وحدها»[xxxix].

٣- ولم يقف جبران عند هذا الحد، بل كان ينقم على الفقراء والمستضعفين بسبب استسلامهم وخضوعهم. ومن ثم بدأ يحرضهم على رجال الدين قائلاً لهم: «أتعرفون أيها المستسلمون الضعفاء من هو الكاهن الذى تهابونه وتقيمونه وصّياً على أقدس أسرار نفوسكم؟ هو خائن يعطيه المسيحيون كتاباً مقدساً شبكة يصطاد بها أحوالهم .. هو ذئب كاسر يدخل الحظيرة فيظنه الراعى خروفاً وينام مطمئناً، وعندما يجيء الظلام يثب على النعاج ويخنقها نعجة إثر نعجة»[xl].

وقد أكد جبران حبه للأذلاء والمستضعفين كما جاء فى قوله: «أحب معاشرة الرعاع والبسطاء»[xli].

ويستطرد الحديث فى الحث والتحريض ضد رجال الدين فيوجه نداءه للفقراء قائلا: «هذه هى حياتكم أيها الفقراء، هذا هو الليل المخيم على أرواحكم أيها التعساء، هذه هى أشباح ذلّكم وشقائكم أيها المساكين، هذا هو الصراخ المستمر الذى سمعته خارجاً من أعماق صدوركم، فاستيقظت وتمردت على الرهبان وكفرت

بمعيشهم .. ألا تعلمون أن ممثلى الدين وأبناء الشرف الموروث، يتعاونون على إخضاعكم وإذلالكم.. أى رجل منكم لم يلو عنقه كاهن الكنيسة أمام سيد الحقول؟»(xiii).

وإلى جانب نقمة جبران على جيمع أشكال التمرد على سلطة الكاهن وهيمنته، فإنه يقف إلى جانب الفقير مؤيداً ومسانداً تمرده على الغنى، فهو فى كثير من كتاباته يصور لنا الفقير مسحوقاً والغنى ساحقاً (xliii). وهذا ما أشار إليه جبران فى قصة خليل الكافر والشيخ عباس كما أوردناه سابقاً.

هكذا نرى جبران كيف يرفض الرهبنة، ولم يقف عند هذا الحد، بل رأيناه يفضح الأديرة أيضاً. ولعلنا نلمس هذا الأثر من خلال كتابه (الأرواح المتمردة)، الذى يوحى من عنوانه بالثورة على الرهبنة والرهبان حيث جاء فى مقدمته: «وجبران فى هذا الكتاب يرفع علم الثورة على ما تعارف عليه الناس واتفقوا، فهو ثائر على الرهبنة وينادى بإلغائها»(xliv).

أما الشرائع التى يتسلح بها رجال الدين فإنما هم يستغلونها فى ظلم غيرهم من أبناء المجتمع، وذلك بخلق فرقة بين أفراد الوطن الواحد وهم يرون أنه من حق الوالدين إرغام البنت على الزواج ممن لا ترغبه مقابل حرمانها من الزواج ممن ترتضيه، كما تحلل للحاكم أن يشنق رجلاً جائعاً لم يرتكب جريمة سوى أنه حاول سرقة الغلال التى جمعها مالك غنى من تعب الفقراء والمحتاجين(xlv).

والذى يمكن ترجيحه هو القول بأن جبران لم يكن ناقماً على الدين ولا على أصوله وتعاليمه الصحيحة السليمة، وإنما كان ناقماً على رجال الكنيسة ممن كانوا يتاجرون بالدين، فهو كما أكد الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى «لم يحارب من رجال الدين إلا المتعصبين والدجالين والمتاجرين، أما الذين يقدمون الحق ويعلمون به فقد أحبهم واحترمهم، وفضح فى الوقت نفسه المرائين والمتظاهرين بالغيرة على الدين، والدين منهم براء»(xlvi).

أما عن حملته على رجال الدين فشأنه فى ذلك شأن سائر أدباء النهضة الذين عالجوا موضوع الإصلاح الاجتماعى والفكرى(xlvii).

وهو فى قصصه العنيفة لم يكن أشد عنفاً من أحمد فارس الشدياق وأمين الريحانى ومن على شاكلتهما(xlviii).

وعندما يثور جبران على الكنيسة فإنما يثور عليها كمؤسسة ورجال الدين كطبقة؛ حتى يعود الإنسان إلى مصادر الروح وينابيعها التى لا تنقطع، وهو فى هذا وذاك يشبه "وليم بليك" «يعرى المسيح من الوثنية والرمز ويكشف عن جوهر الإنسان فيه. وهو كبليك أيضاً يكره الطقوسية، ليعود الإنسان إلى مصادر الروح وينابيعها التى لا تنقطع»(xlix).

وهو بهذا يؤكد وحدة الخير والشر التى ينضوى عليها ضمير الإنسان الذى جعله الله خيراً بالفطرة والغريزة. ومن ثم يتضح جلياً بأن المسيح غير الكنيسة.

العودة إلى الدين :

ينظر جبران إلى الدين بأنه التماس الحق فى أى عقيدة، وهذا أمر مرده إلى الضمير. يقول جبران فى هذا الصدد: «ومتى كان ضمير جارس كنور الشمس حّياً نقّياً وقلبه كوردة تتفتح فى الفجر لتستقبل ندى السماء، فلا فرق عندى إن ذكر بين الدراويش أو سجد مع اليسوعيين أو اغتسل فى نهر الكنج مع البوذيين»(l).

وهذا ما يقرر تأصيل قولة جبران ومقاربتها للقائلين بوحدة الواجد ووحدة الوجود ولو انحرفت الطقوس.

ويمكن القول بأن الدين هو الخلاص عند جبران، ويتجلى هذا الموقف فى تمجيد جبران "للمسيح"، كذلك تمجيده للقيم والمعانى الإنسانية ثم علاقته بالتصوف ودعوته إلى الطهر والنقاء والمحبة والسلام. وحتى يتضح لنا ذلك يمكننا أن نسلط الأضواء على هذه المحاور الأربعة.

١ – تمجيد يسوع :

DOI : 10.12816/0055872

على الرغم مما عرفناه عند جبران من تمرد، إلا أن شعوره الصوفى كان يزيل الشك باليقين؛ لأن ثورته العارمة لم تكن على الدين فى جوهره بل كانت على المتاجرين بالدين.

يقول الأستاذ عبد الكريم الأشتر: «وكانت تقترن هذه الثورة دائماً بتمجيد المسيح والرجوع إلى نصوص الإنجيل لاستشهادها على ما آلت إليه تعاليم المسيحية على أيدى رجال الدين»[li].

ومُعاهلة جبران مع المسيح لم تأت عرضاً بل كان مفطوراً عليها منذ نعومة أظفاره، إذ كانت أمه تغذى روحه بالحديث عن يسوع، كما يؤكد ذلك الدكتور خريستونجم بقوله: «حظُّ جبران بيسوع كان ممهداً ميسوراً، لأن أديبنا خضع منذ طفولته لتأثيره عن طريق أمه ذلك؛ لأنها ابنة كاهن عاشت فى أجواء لاهوتية وروت لابنها كثيراً من أخبار المسيح»[lii].

وكأنى بجبران وهو يعيش هذا الحدث يتزود من هذه الأخبار يختزنها أول الأمر ثم عندما تتقدم به السنون نجده يجترها ويواجهنا بها فى كتاباته. ومن بين ما ينقله إلينا فى هذه الأحاديث اعترافه ببشرية عيسى عيه السلام التى يرجعها إلى ثلاث عجائب .. قائلاً: «لأخينا يسوع ثلاث عجائب ... الأولى أنه كان إنساناً مثلى ومثلك. والثانية أنه كان ذا كياسة وظرف، والثالثة معرفته أنه غالبٌ مع أنه غُلب. أيها المصلوب، إنك مصلوب على قلبى، والمسامير التى تثبت يديك تخترق جدران قلبى، وغداً عندما يمر غريب بهذه الجلجلة لن يظن أن دم اثنين نازف هنا، بل يظنه دم واحد فقط»[liii].

وجبران بوصفه شاعراً مسيحياً فهو يحترم الأديان وفى مقدمتها الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام وكتابه الخالد محذراً من يتخذ القرآن الكريم وسيلة لتحقيق دعواه الزائفة الباطلة وما يقال عن القرآن يقال عن الإنجيل أيضاً.

هذا ما عناه جبران وقصده فى قوله: «أنا مسيحى ولى فخر بذلك ولكنن أهوى النبى العربى وأُكبِرُ اسمه وأحب مجد الإسلام وأخشى زواله ... أنا أجل القرآن

ولكننى أزدرى من يتخذ القرآن وسيلة لإحباط مساعى المسلمين، كما أننى أمتهن الذين يتخذون الإنجيل وسيلة للحكم برقاب المسيحيين»[liv].

لعلنا نلمس من هذا القول بأن نفس جبران ما تزال تحدثه بموقفين مهمين تركا أثراً فى حياته لا ينساه بل تحدثه به نفسه يقظة ومناماً . وهذان الموقفان يأكلان معه ويشربان؛ أما الموقف الأول فهو هجرته التى كانت بسبب الصدام مع الكنيسة وما ينبغى أن تكون عليه من (الرحمة والدعة والحب والعدالة وحب الخير)، غير أن واقعها تلوث بأيدى رجالاتها الفاسدين. أما الموقف الآخر فمرده إلى تلك الصدمة التى ُمنى بها فى قصة حبه الأول الذى لم يكتمل بسبب طمع أحد رجال الكنيسة فى فتاته وتزويجها لأحد أقاربه مما سبب لجبران ردة فعل من ظاهر بعض رجال الكنيسة وهم يرددون مسوح الرحمة وباطنهم الذى يمتلئ بالحقد والحسد والطمع لما فى أيدى الناس وما فى قلوبهم أيضاً من مشاعر الحب!! وهم يستغلون بذلك ضعف المرأة ورقتها حيث لم تستطع أن تقف فى وجه الظلم الذى أجبرها على الزواج ممن لا ترغبه وهى لا تستطيع أن تقول لا تحت وطأة رجال الكنيسة المزيفين.

ونظرة جبران إلى الدين لا تنحصر فى العبادة، بل تتمثل أيضاً فى المعاملة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى وهو أمر نصت عليه الأديان على اختلاف وجهاتها ومذاهبها.

فهذا تاجر يلتقى بجبران فيطلب منه أن يحدثه عن البيع والشراء والمعاملة فى ذلك فيقول له: «إذا ذهبتم إلى ساحة المدينة ... فاضرعوا فى تلك الساعة إلى الروح المتسلطة على الأرض، أن تحل عليكم وتبارك مقاييسكم وموازينكم التى تعينون بها مقدار ما تجرى عليه مقابضاتكم»[lv].

٢ – تمجيد القيم والمعانى الدينية:

كان جبران منذ طفولته تواقاً إلى القيم والمعانى الدينية التى رسخت فى ذهنه منذ وقت مبكر، وتطلع إلى معرفتها والتمسك بها بقدر المستطاع، ومما يؤكد رسوخ

DOI : 10.12816/0055872

هذه الروح الدينية فى نفس الطفل ذلك الحوار الذى جرى بينه وبين أمه: «ما هو ديننا يا أمى؟ نحن موارنة يا بنى. ومن هم الروم؟ هم نصارى مثلنا. ولماذا اسمهم الروم واسمنا موارنة؟ عليك أن تسأل الخورى يا بنى فهو ينبئك أحسن منى»[(lvi)].

وهو دائماً يدعو أصدقاءه إلى كلمة سواء تتسم بالكلمة الحسنة وما يحقق الفائدة المرجوة، وهذا ما نجده يقرره فى العديد من رسائله التى كان يبعث بها إلى هؤلاء الأصدقاء. ففى رسالة لميخائيل نعيمة، حيث تجتمع الرابطة القلمية، ولم يكن فى مقدوره حضور الاجتماع. فكتب إليه قائلاً: «أرجو أن تجتمعوا وتقرروا ما فيه فائدة وأن تذكرونى بكلمة حسنة، فأنا فى هذه الأيام بحاجة ماسة إلى تمنيات الأصدقاء، وصلوات المتعبدين»[(lvii)]. كما يقول له فى خطاب آخر: «صلّ من أجلى واكتسب أجرى»[(lviii)]. ونجده يحثه على الجنون، فيكتب إليه قائلاً: «إن الجنون أول خطوة نحو التجرد الربانى، كن مجنوناً يا ميشا. كن مجنوناً وأخبرنا ما وراء نقاب العقل من الأسرار. إن القصد من الحياة الاقتراب إلى تلك الأسرار، وليس كالجنون مطية. كن مجنوناً وابق أخاً مجنوناً لأخيك المجنون»[(lix)].

ولعل جبران لا يقصد الجنون الذى لا يستطيع فيه الإنسان التمييز أو الاختيار، وإنما يتضح أن جبران يقصد أن يختار الإنسان شعبة أو زاوية من جوانب الجنون وهى "التحرر"؛ فجبران الذى مل القيد وأراد التمرر والانطلاق يرى فى الجنون من هذه الزاوية ضرباً من ضروب النجاة ويدعو لتعميم ذلك فى شىء من التكرار، (كن مجنوناً وابق أخاً مجنوناً لأخيك المجنونِ).

وجبران كان يحترم تعاليم الدين وقيمه المجيدة السمحاء، ويبنى ذلك على المعرفة فقد ذكر حنا فاخورى أنه «علم أن المعرفة أساس التقدم وركن الإصلاح، وهى التى تحطم الأصنام وتزيل الخرافات من النفوس وتطيح بالاستعباد العقلى وتخضع المجتمع لسلطان العقل»[(lx)].

إذن هو يخضع الأمر للعقل، فعلى الإنسان أن يبصر بعقله ويتدبر فيما حوله من شؤون الكون حتى يصل إلى اليقين.

ولعل أعمال الإنسان ترجمان لعقله وتفكيره وتدبره، ومن هذا المنطلق يدخل جبران إلى أعماق هذه القضية ويقصر حديثه على الدين قائلاً: «من يستطيع أن يفصل إيمانه عن أعماله؟ وعقيدته عن مهنته؟ إن شئتم أن تعرفوا ربكم فلا تعنوا بحل الأحاجى والألغاز، بل تأملوا ما حولكم تجدوه لاعباً مع أولادكم»(lxi).

وفى هذا كله –من كلام جبران– ما يوحى بأن جبران كان يصدر فى أمريه عن روح دينية، لعلها أصبحت فى المهجر أقوى مما كانت عليه فى الوطن، وإن كانت روحاً دينية عامة لا تتقيد بعبادات أو أصول.

موقفه من التصوف :

ليس بإمكان الباحث أن يجزم على صوفية جبران لأن حياته لا تنبئ عن شىء من هذا كله هذا اللهم إلا إذا قلنا فى شىء من الحيطة بأن روح التصوف تعد سمة من سمات التفكير عنده، وإن كان قد تمرد على الكنيسة ورجال الدين، إلا أن تمرده وخروجه جاءا فى إطار محدود الهدف منه الهروب من تشدد رجال الدين المتعصبين. ويذكر إنعام الجندى بأن جبران كان: «فى آخر عهده أكثر تأثراً بالسيد المسيح والنبى محمد، من كل من عداهما»(lxii).

ثم نجد جبران يخاطب الإنسان قائلاً: «أحبك ساجداً فى جامعك، وراكعاً فى هيكلك، ومصلّياً فى كنيستك، فأنت وأنا ابنا دين واحد هو الروح»(lxiii). وقد فضل الخروج من البيت وعدم العيش تحت سقفه، حيث يرى فى هذا الخروج تحقيقاً لحريته التى جعلته «فى النهاية هو الأب والابن والأم والأخ والأخت مجتمعين فى كينونة واحدة»(lxiv).

وحقيقة الأمر أن جبران هيأ نفسه للنبوءة التى تبناها وجعلها متجسدة فى ذاته حيث كان: «يرى هذا اللون مرتكزاً على قطبين أزليين متقابلين: فى الناحية الأولى ينتصب قلب الله المحتوى فى عالم الحقيقية الميتافيزيقية المطلقة، وفى الناحية المقابلة يبرز قطب الإنسان، تلك البذرة الإلهية المزروعة فى تربة غريبة

DOI : 10.12816/0055872

عن جوهرها التى تحملها على الالتهاب شوقاً وحنيناً إلى النمو وتحقيق الذات فى الاكتمال»[lxv].

ولعل كتاب "النبى" أقرب مؤلفات جبران إبرازاً لهذا الجانب، وإن كان التيار الصوفى يتخلل جميع آثار جبران الإنجليزية إلا أنه أشد وضوحاً فى هذا الكتاب، «حيث يسيطر على ثلثى فصوله الستة والعشرين»[lxvi].

وربما تأليفه لهذا الكتاب كان سبباً فى تمسكه بعقيدته الراسخة التى لم تفارقه على الرغم من سخطه على رجال الكنيسة.

الدعوة إلى المحبة والسلام:

ليس من الغريب أن يكون جبران داعية للمحبة والسلام والتحلى بالصدق والتزام الصراحة والجرأة والدعوة إلى الحق الذى يعلو القوة مهما كانت الدوافع والأسباب.

ولهذا نجده عندما بدأ يكتب مسودة كتابه (النبى) وقبل أن يقدمه للنشر كان يكتب عبارته المشهورة: «اللهم أعنى على التعبير عن الحق بما يسطره قلمى من آيات الجمال فى هذه الكراسة»[lxvii].

كان جبران رسولاً مبشراً يدعو إلى الطهر والنقاء والمحبة والسلام، ولعلنا نجده يمثل هذه الدعوة فى قوله: «إذا أشارت إليكم المحبة فاتبعوها، وإذا ضمتكم بجناحيها فأطيعوها وإن جرحكم السيف المستور تحت ريشها. المحبة تعجنكم بدموعها حتى تلينوا، ثم تعدكم لنارها المقدسة لكى تصيروا جبزاً مقدساً يقّرب على مائدة الرب المقدسة»[lxviii].

ثم يؤكد لهم بأنه داعية سلام يسعى جاهداً حتى يزيل ما فى قلوبهم من ضغينة وحقد وخلاف، إذ يقول: «إننى أود أن أكون صانع سلام فى نفوسكم، فأحول ما فيكم من تنافر وخصام إلى وحدة وسلام»[lxix].

من خلال تلك العبارات وأمثالها نرى أن فى نفس جبران دعوةً صريحةً إلى المحبة والسلام والتسامح، وبمثل هذه الصفات تسمو البشرية وتعيش فى أمن واستقرار دائمين.

التصوير عند جبران:

الصورة دعامة أساسية لها دورها البارز فى الشعر، كما تعد ركناً هاماً فى بناء القصيدة، هذا إلى جانب «مكانتها فى الشعر الطليق الذى يجد فى الصورة المثقلة بالإيحاء ما يعوضه من إيحاء الوزن والقافية. ولعل هذا من الأسباب التى جعلت جبران يلجأ إلى الصور ويركز عليها نثره الفنى الذى اعتمده فى كتاباته، والذى نتحققه أن جبران كان يعدّ نثره هذا شعراً أو قصائد نثرية»[lxx].

ولما كان جبران شاعراً مبدعاً وأديباً متميزاً إذن ليس ثمة غرابة أن يلجأ إلى التصوير ليزيد فنه رونقاً وجمالاً وتأتى الطبيعة فى مقدمة المصادر التى استلهم منها جبران فنه التصويرى، ناهيك عن لغته السامية الشفافة وسعة خياله وعمق تفكيره وكثرة اطلاعه منذ صغره، مما انعكس على حياته الفنية التى أدت إلى سيرورة شعره وذيوعه لدى القارئ والسامع على حد سواء.

وهنا يبرز سؤال، هل تأثرت لغة جبران بالجانب التصويرى الذى أبدع فيه فى العديد من اللوحات؟

لعله من نافلة القول أن لغة جبران قد تأثرت بالجانب التصويرى، وأكبر دليل على ذلك أنه عند مناقشته لموضوع تجبر الكنيسة وانحراف رجالها عن الطريق القويم يسرد ذلك فى سياق قصصى –قد يكون له نسبة من الحقيقة– ليؤثر فى القارئ ويربطه بالحدث. ومن ذلك: (سارق الحبوب – خليل الكافر – قصة حبه لسلمى ...) وقد ضربنا أمثلة لذلك فى نماذج أوردناها سابقاً.

وبهذا يمكننا أن نحصر مصادر التصوير عند جبران فى عنصرين أساسيين هما: (اللغة والطبيعة).

(أ) اللغة :

تمكن جبران من أن يمسك زمام اللغة وأن يجعلها طيعة بين يديه حتى حقق بذلك مهارة فائقة دلت عليها كتاباته التى بين أيدينا. ولعل هذا التفوق اللغوى عند جبران مرده إلى أمرين اثنين هما: (البيئة والاغتراب)؛ ففى بيئته نما فكره وترعرع

DOI : 10.12816/0055872

فشب على حب الاطلاع والانكباب على القراءة حتى أصبحت ناصية اللغة تلازمه فى حركاته وسكناته، ومن ثم ترجمها فى كل ما كتبه شعراً ونثراً.

وأما الاغتراب فقد ساعده على الانخراط فى المجموعة التى لازمها كماً وكيفاً، حيث نجد هذه المجموعة أنها لم تسمح للغة الوطن الجديد أن تذهب لغتها الأصلية.

يقول الدكتور محمد نايل: «إنى لمعجب من غير تحفظ بهؤلاء الرواد الذين قهروا عوامل الطبيعة، وأنشأوا لهم وطناً عربياً جديداً، عربى الحياة واللغة والمشاعر، يعيشون فيه بكل هذه الصفات كأنه من ضواحى دمشق أو مشارف بيروت، وليس سان باولو أو نيويورك»(lxxi).

وإلى جانب الكلمات الموحية المعبرة فى شعر جبران فهناك أيضاً بعض الكلمات التى تتسم بالخلل والضعف كقوله:

الخير فى الناس مصنوع وإن جُبرواوالشر فى الناس لا يفنى وإن قُبروا

«فجبروا، على ما فيها من خطأ لغوى، إذ الوارد أجبره، قلقلة لا تفى بحق المعنى الذى أراد أن يسوقه... لكن جبران قمة من قمم العربية فى منظومه ومنثوره، نقل فى لغته الشرق إلى الغرب»(lxxii).

(ب) الطبيعة:

لعله من اللافت للنظر أن الطبيعة هى أهم مصدر للشعر عند جبران، وهو لم ينظر إليها نظرة من سبقه من الأقدمين، بل كانت أمه الرؤوم فدنا منها والتحم بها ولجأ إليها ورأى فيها ما لم يره غيره وسمع ما لم يسمع(lxxiii).

لقد طاف جبران بفكره فى كل سماء وتحمل الحرمان والعذاب والهجرة والغياب ولم يجد متنفساً إلا فى الغاب فالتجأ إلى الطبيعة على ما فيها من بدائية وعفوية وذلك لما حباها الله من عدل وبراءة، حيث لا كذب ولا رياء ولا طقوس.

كما كان للحنين وهجرة الأوطان أثر بالغ فى تفوق جبران وغيره من شعراء المهجر فى شعر الحنين، هذا ما أجمع عليه النقاد –ماعدا الأستاذ أباظة– وهم يعزون هذا التفوق إلى افتقاد جمالات الطبيعة التى خلفوها وراءهم، ولعل هذه القصائد «التى نظموها والتى تهز الوجدان برهافتها ما كانت (أزهاراً صناعية بلا شذا) كماي قول حضرة الناقد»(lxxiv).

لقد رمى جبران بنفسه فى أحضان الطبيعة لأنه وجد فيها بديلاً عن ما يعانيه المجتمع من تعسف بعض آراء رجال الدين.

خذ قوله مثلاً وهو يعبر عن البساطة التى تتجلى مظاهرها فى الطبيعة:

ليس فى الغابات راعٍ لا ولا فيها القطيع
فالشتا يمشى ولكن لا يجاريه الربيع(lxxv)

هذه الحياة التى لا يعتريها الحزن ولا يطرق بابها الهم:

ليس فى الغابات حزنٌ لا ولا فيها الهموم
وغيوم النفس تبدو من ثناياها النجوم(lxxvi)

والعدل الذى يتظاهر به أهل المدن وهم يجهلون كنهه وسرّه، إنما هو «بدعة فى رأى جبران»(lxxvii).

فسارق الزهر مذموم ومحتقر وسارق الحقلِ ُدعى الباسل الخطُر
وقاتل الجسم مقتول بفعلته وقاتل الروح لا تدرى به البشُر(lxxviii)

فلا ثمة حق إذن مادام هذا لون العدل بين البشرية؛ إن العدل الحقيقى نجده متمثلاً فى حياة الغاب كما يرى جبران:

فإذا الصفصافُ ألقى ظلَّه فوق التراب
لا يقول السَّرُو هذى بدعة ضد الكتاب(lxxix)

إن حب جبران للطبيعة ونقمته على الحضارة المادية التى طغت على حياته الجديدة نجدها تشتد كلما ازدادت تلك الحضارة عتّواً وتعقيداً ، وكأن الهجرة زادت

DOI : 10.12816/0055872

هؤلاء المهاجرين «التصاقاً بالطبيعة وكأن شعر الحنين أداة انتقام من البلد الذى أقصاهم عنها»[lxxx].

إن الحضارة الزائفة التى تكتنفها الصبغة المادية بكل أنماطها جعلتهم يقصدون إليها وينقمون عليها وليس لهم ما يواجهون به ذلك سوى لجوئهم إلى الطبيعة والتحامهم بها التحاماً مباشراً متخذين من شعر الحنين وهجرة أوطانهم سلاحاً فتاكاً يواجهون به هذه الحياة التى أبعدتهم عن أوطانهم وكانت فى غربتهم وتشردهم.

والناس فى هذه الحياة فى صراع وتكالب، وهذه سُنة الحياة. كل يحاول أن يظفر بالنصر ويأبى المذلة والخنوع والغلبة دائماً تلازم القوىّ. هذه الحال نجدها فى مجتمع المدينة، أما فى الغالب فالحال تختلف تماماً ؛ لأن جميع الناس سواسية، والحب فى الغاب حب شريف طاهر ليس كحب أهل المدن. وهذا الحب –فى اعتقاد جبران– لا يعتد به طالما ارتبط بمصلحة دنيوية، فهو حب مؤقت يزول ويتلاشى بانقضاء المصلحة أو بزوال المحبين أو تفرقهم؛ لأنه لم يبق على أساس متين. يقول جبران فى ذلك:

والحب فى الناس أشكال وأكثرها كالعشب فى الحقل لا زهر ولا ثمر[lxxxi]

نلاحظ مما تقدم كيف أن جبران استلهم أفكاره من الطبيعة. هذه الأفكار التى سردها فى قصيدته "**المواكب**".

وقد عرضنا نماذج من هذه الأفكار وذلك على سبيل الاستشهاد لا على سبيل الحصر.

هكذا يرى جبران أن ثمة بوناً شاسعاً بين حياة المدنية المعقدة التى لوثها الإنسان بظلمه وجبروته وفساده وعبثه، وبين حياة الغاب التى تتسم بروح هادئة بريئة صادقة طاهرة نقية. وقد عبر عن هذا بقوله :

العيش فى الغاب والأيام لو نُظمتفى قبضتى لغدت فى الغاب تنتثر[lxxxii]

ودعوة جبران إلى الغاب هى دعوة شعرية بحتة لم تقترن بموقف عملى، إذ لم يلجأ إلى الطبيعة والغاب حقيقة كما لجأ دعاة الرومانتيكية الأوائل أمثال: (ورد زورت وكولردج ولورد بايرون)، لأنه عاش فى مدينة وما ذكره للغاب الذى لم يره إلا أنه رأى الريح تهب تجاهه فهب معها.

إن وضع الطبيعة عند جبران لابد من وضعه فى قالب مقنن محدود، حتى يتبين لنا الغرض الذى ربط جبران بالطبيعة وجعله يتحد بها اتحاداً لا تنفصم عراه. يقول الدكتور إحسان عباس والدكتور محمد يوسف نجم: «أراد جبران أن يحدد الغاب وطبيعة الحياة فيه، فإذا هذا المطلق اللامحدود ينحصر فى حدود صغيرة فى "ضيعة" من لبنان، وفى منظر طبيعى واحد، وإذا الغاب نقيض القصور، يضحك فيه الفجر ويصلح فيه العشب فراشاً والفضاء لحافاً، وإذا الغاب المجرد هو الطبيعة الجميلة»[lxxxiii].

ويظهر مصداق ذلك فى قول جبران فى قصيدته المطولة (المواكب):

هل تخذت الغاب مثلى　　منزلاً دون القصور

فتتبعت السواقى　　وتسلقت الصخور

هل تحممت بعطر　　وتنشقت بنور

وشربت الفجر خمراً　　فى كؤوس من أثير

هل جلست العصر مثلى　　بين جفنات العنب

والعناقيد تدلّت　　كثريّات الذهب

هل فرشت العشب ليلاً　　وتلحفت الغضا

زاهداً فيما سيأتى　　ناسياً ما قد مضى[lxxxiv]

هذا ما يوحى بأن الطبيعة أثرت فى أدب جبران تأثيراً كبيراً سواء فى الشكل أو المضمون، وقد أشار إلى ذلك إنعام الجندى بقوله: «وتفاعلُ جبران مع الطبيعة ظاهر فى أسلوبه، ظهوره فى معانيه فألوان صوره وأشكالها وظلالها، مستمدة من

DOI : 10.12816/0055872

الطبيعـة بوجـه عـام، وأبـرز مـن كـل ذلـك أن الطبيعـة خـلاص وملجـأ وبـراءة وطهر»[lxxxv].

وكما هرب جبران شعرّياً إلى (الغاب) نجده أيضاً يهرب إلى الفن، ففى الفن تسلية أى تسلية. كما أن فيه خلاصاً على حد تعبير جبران حيث يقول: «الموسيقى تقود أظعان المسافرين وتخفف تأثير التعب وتقصّر مديد الطرقات، فالعيس لا تسير فى البيداء إلا إذا سمعت صوت الحادى، والقافلة لا تقوم بثقيل الأحمال إلا إذا كانت الأجراس معلقة برقابها ...» [lxxxvi].

ومن شدة شغفه بالفن وولوعه به نجده يؤلف كتاباً فى الموسيقى، وهو يرى أن الغناء يزيل الهموم والأحزان، كما أن صوت الناى ونغمته هى خالدة باقية .. حتى إذا انقضت الأيام وانتهت الدنيا ومن عليها فالفن باقٍ لا يفنى. يقول فى هذا المعنى:

أعطنى الناى وغنّ فالغنا يمحو المحن

وأنين الناى يبقى بعد أن يفنى الزمن[lxxxvii]

ليس هذا فحسب، بل يجعل سر الوجود كلّه فى الفن ولا شىء يبقى بعد فناء الخلق سوى الفن؛ لأنه حياة خالدة :

أعطن النّاى وغنّ فالغنا سرُّ الخلود

وأنين الناى يبقى بعد أن يفنى الوجود[lxxxviii]

خاتمة البحث:

لعلنى فى هذه الإلمامة السريعة كشفت النقاب عن أثر الكنيسة فى أدب جبران وقصرت الحديث على مواقف رجال الكنيسة من المجتمع وظلمهم واستبدادهم وطغيانهم المادى وابتزازهم الناس باسم الدين مع تزييفهم لبعض تعاليم الدين. أما عن نقمة جبران على الكنيسة فليس مرجع ذلك إلى عقدة نفسية، وليس بسبب حادثة فى طفولته تجاه الكنيسة، وإنما نقم عليها بسبب ما رآه من استغلال رجال الدين للفقراء من حوله وخضوع هؤلاء واستكانتهم. وكان جبران يمتلك روحاً ناقمة متمردة ترفض وتهدم ما هو قائم من أخطاء؛ فجبران الذى ألف "الأرواح المتمردة" و"الأجنحة المتكسرة" ليصور التخلف والجهل وسيطرة الكنيسة ويفضح رجالها، هو جبران نفسه الذى ألف فيما بعد كتاب "النبى" ليرسم طريق الخلاص من خلال المحبة.

وهكذا فجبران أديب وثائر اجتماعى، وطامح إلى المحبة والسلام. وموقفه من الكنيسة هو موقف معادٍ للضعف والخضوع والسيطرة، ورؤيته للدين هى رؤية محبة وتسامح لتحقيق حرية الإنسان.

هذا هو جبران حّياً وميتاً .. ولو كان إسلامّياً لترحمنا عليه.

DOI : 10.12816/0055872

الـهوامش:

(i) محمد عبد المنعم خفاجى (د): قصة الأدب المهجرى، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨٠م. ص ٧٢.

(ii) ديوان الشاعر القروى، من قصيدة: "تحية الحرية"، ج. ع. ل، وزارة الدولة، الطبعة الثالثة ١٩٧١م. ص ٥٩.

(iii) نادرة جميل سراج: شعراء الرابطة القلمية، دار المعارف بمصر (د–ت). ص ١٢٢.

(iv) العواصف، دار الفرجانى، القاهرة ١٩٨٤م. (د–ت). ص ٦٢.

(v) الأرواح المتمردة، دار الفرجانى، القاهرة (د–ت). ص ٩٦.

(vi) المصدر نفسه، ص ٥٠.

(vii) المصدر نفسه، ص ١١.

(viii) المصدر نفسه، ص ٥٣.

(ix) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(x) انظر الأجنحة المتكسرة، دار الفرجانى، القاهرة (د–ت). ص ٤٣.

(xi) المصدر نفسه، ص ٧٦.

(xii) المصدر نفسه، ص ٧٧.

(xiii) المجموعة الكاملة المعربة عن الإنجليزية، تقديم دكتور جميل جبر، دار الجيل، بيروت (د–ت). ص ١١٢.

(xiv) المصدر نفسه، ص ١٥٤.

(xv) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(xvi) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(xvii) المصدر نفسه، ص ص ١٥٤، ١٥٥.

(xviii) المصدر نفسه، ص ١٥٦.

(xix) ينظر أدونيس: كتاب الثابت والمتحول، دار العودة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٨م. ج٣، ص ١٦١.

(xx) الشابى وجبران، الدار العربية للكتاب، طرابلس، الطبعة الخامسة ١٩٨٤م. ص ١٣٤.

(xxi) الجديد فى البحث الأدبى، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٦٤م. ص ٢٦٢.

(xxii) الرائد فى الأدب العربى، دار الرائد العربى، بيروت ١٩٧٩م. ج٢، ص ٥٠٧.

(xxiii) الأجنحة المتكسرة (العاصفة) مصدر سابق، ص ٢٣٥.

(xxiv) المصدر نفسه، ص ٢٣٤.

(xxv) موسوعة جبران خليل جبران، مصدر سابق. ص ص ٣٦، ٣٧.

(xxvi) خليفة محمد التليسى: الشابى وجبران، دار الثقافة، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة مارس ١٩٧٤. ص ٤٧.

(xxvii) نفسه، ص ٤٩.

(xxviii) نفسه، ص ١٣٢.

(xxix) الجديد فى البحث الأدبى، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٦٤م. ص ٢٦٠.

(*) "ديرقزحيا": هو أغنى وأشهر دير فى لبنان، تقدر حاصلاته بألوف الدنانير، ويسكنه عشرات من الرهبان، وقزحيا لفظة سريانية معناها: (فردوس الجنة).

(xxx) الأرواح المتمردة، مصدر سابق، ص ١٧٣.

(xxxi) ينظر المصدر السابق، ص ٢٠٧.

(xxxii) المجموعة الكاملة، مصدر سابق، ص ص ١٢١، ١٢٢.

(xxxiii) الأرواح المتمردة، مصدر سابق، ص ٩٦.

(xxxiv) ينظر موسوعة جبران خليل جبران، مصدر سابق، ص ص ١٣٢، ١٣٣.

(xxxv) المصدر نفسه، ص ١٣٣.

(xxxvi) الأجنحة المتكسرة، مصدر سابق، ص ٦٠.

(xxxvii) عبد الكريم الأشتر، النثر المهجرى: محاضرات ألقاها المؤلف عام ١٩٦٠م. مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة. ص ١٠٤.

(xxxviii) الأجنحة المتكسرة، مصدر سابق، ص ٨٢.

(xxxix) عبد الكريم الأشتر: النثر المهجرى، مرجع سابق. ص ١٠٥.

(xl) الأرواح المتمردة، مصدر سابق. ص ٩٧.

(xli) كلمات جبران، مصدر سابق. ص ١٣٠.

(xlii) المجموعة الكاملة، مصدر سابق. ص ص١٥٠، ١٥١.

(xliii) مقدمة الأرواح المتمردة، مصدر سابق. ص ٥.

(xliv) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(xlv) ينظر، روز غريب: جبران فى آثاره الكتابية، دار صادر، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة ٢٠٠٢م. ص ٥٣.

(xlvi) قصة الأدب المهجرى، مرجع سابق. ص ٣٧٥.

(xlvii) ينظر، رئيف الخورى، الفكر العربى وأثر الثورة الفرنسية فى توجيهه، دار المكشوف ١٩٤٣م، م. س، أيضاً ص ١٩٥ – ٢٣٥.

(xlviii) ينظر، روز غريب، جبران فى آثاره الكتابية، دار صادر، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة، أيلول ٢٠٠٢. ص ص ١٤٠، ١٤١.

(xlix) نذير العظمة (د): جبران خليل جبرن فى ضوء المؤثرات الأجنبية، دراسة مقارنة، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، الطبعة الأولى ١٩٨٧م. ص ص ١٤٨، ١٤٩.

(l) تراجع مؤلفات جبران لمعرفة موطن الاقتباس.

(li) النثر المهرجى، مرجع سابق. ص ٤٠.

(lii) خريستو نجم (د): المرأة فى حياة جبران، دار الرائد اللبنانى، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٥م. ص ٢٤٢.

(liii) مقدمة كتاب النبى، تقديم أنطونيوس بشير، دار الأندلس، بيروت (د–ت).

(liv) المصدر نفسه، ص ١٢.

(lv) كتاب النبى، دار الفرجانى، القاهرة (د–ت). ص ٤٩.

(lvi) ميخائيل نعيمة، جبران خليل جبران، مؤسسة نوفل، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٥م. ص ٢٤٢.

DOI : 10.12816/0055872

(lvii) تراجع مؤلفات جبران لمعرفة موطن الاقتباس.

(lviii) تراجع مؤلفات جبران لمعرفة موطن الاقتباس.

(lix) تراجع مؤلفات جبران لمعرفة موطن الاقتباس.

(lx) حنا فاخورى: الجديد فى البحث الأدبى، ص ٢٥٩.

(lxi) كتاب النبى، ص ص ٩٤، ٩٥.

(lxii) الرائد فى الأدب العربى، مرجع سابق: ٢ / ٥٩٤.

(lxiii) النثر المهجرى، مرجع سابق، ص ٩٤.

(lxiv) المرأة فى حياة جبران، دار الرائد اللبنانى، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٥م. ص ٢٤٢.

(lxv) المرجع نفسه، ص ٢٦٣.

(lxvi) كتاب النبى، المقدمة.

(lxvii) المصدر نفسه، ص

(lxviii) المصدر نفسه، ص ١٢.

(lxix) المصدر نفسه، ص ٦٠.

(lxx) روز غريب: جبران فى آثاره الكتابية، مرجع سابق، ص ١٩٦.

(lxxi) محمد نايل (د): اتجاهات وآراء فى النقد الحديث، مطبعة الرسالة، القاهرة (د–ت). ص ١٢٥.

(lxxii) لطفى عبد البديع (د): الشعر واللغة، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى ١٩٦٩م. ص ١٣٠.

(lxxiii) روز غريب: جبران فى آثاره الكتابية، مرجع سابق. ص ١٩٠.

(lxxiv) جورج صيدح: أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية، تقديم عيسى فتوح، الطبعة الرابعة منقحة ومزيدة.

(lxxv) المواكب: دار الفرجانى، القاهرة ١٩٨٤م (د–ت). ص ١٦٣.

(lxxvi) المصدر نفسه: ص ١٦٤.

(lxxvii) نادرة جميل سراج: شعراء الرابطة القلمية، مرجع سابق، ص ١٦٤.

(lxxviii) المواكب، مصدر سابق، ص ١٦٦.

(lxxix) نفسه، ص ١٦٧.

(lxxx) جورج صيدح: أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية، مرجع سابق، ص ٢٠٧.

(lxxxi) المواكب، مصدر سابق، ص ١٧١.

(lxxxii) نفسه، ص ١٧٩.

(lxxxiii) الشعر العربى فى المهجر، دار بيروت ودار صادر (د–ت)، ص ص ٧١، ٧٢.

(lxxxiv) المواكب، مصدر سابق، ص ص ١٧٧، ١٧٨.

(lxxxv) الرائد فى الأدب العربى، مرجع سابق: ٢/ ٥٣٤ — ٥٩٥.

(lxxxvi) الموسيقى وعرائس المروج، دار الفرجانى، القاهرة (د–ت). ص ١٥.

(lxxxvii) المواكب، مصدر سابق، ص ١٦٤.

(lxxxviii) نفسه، ص ١٧٧.